قالت العرب

"هذا البحر لي / هذا الهواء الرطب لي
واسمي وان أخطأت لفظ اسمي على التابوت - لي ..
أما أنا - وقد امتلات بكل أسباب الرحيل / فلست لي .
أنا لست لي"

المشهد
العدد 340 – السنة الرابعة عشرة - الثلاثاء 15 يوليو 2025 م الموافق 20 محرم 1447 هـ

شغف أمريكى بالشعر الجاهلي:

كلارسا بيرت تفضح عنصرية الغرب تجاه العربية (1 من 2)

«المشهد» ترصد حكاية مستشرقة أمريكية اصطدمت بجدار الأكاديمية الغربية فاختارت أن تتعلم العربية فى مقاهى القاهرة ومعلقات الجاهلية

القصيدة الجاهلية تنبع من ثقافة بدوية أصيلة، وتملك قدرة مدهشة على بناء عالم متكامل فى ذهن القارئ

«حين جئت إلى مصر، اكتشفت أن للشعر مكانة تضاهى نجومية مايكل جاكسون فى جيلي!» بهذه العبارة الطريفة والصادمة فى آن، تختصر الأكاديمية والمترجمة الأمريكية كلاريسا بيرت دهشتها الأولى من الثقافة العربية، حين وصلت إلى القاهرة فى الثمانينيات بمنحة لدراسة الشعر الجاهلي. لم تكن الزيارة مجرد تجربة أكاديمية، بل بداية رحلة فكرية طويلة فى قلب اللغة العربية وآدابها، رحلة تجاوزت قاعات الدرس إلى مقاهى القاهرة ودوائر الشعراء، من أمل دنقل إلى شعراء الصعاليك، ومن حرب البسوس إلى قصيدة النثر.

فصل اللغة العربية عن اللغات السامية فى الجامعات الأمريكية مبنى على تصورات عنصرية مترسخة فى الذهن الغربي

تخصصت فى دراسة الشعر الجاهلى تحت إشراف المستشرق الأمريكى الشهير ياروسلاف ستيتكيفيتش

الشعر أعظم ظاهرة لغوية، وأراه أعمق من النثر فى التعبير عن المشاعر، يذهب إلى الجوهر وإلى ما لا يُقال بسهولة

أكثر ما جذبنى فى الشعر الجاهلى عالمه السحرى الذى يشبه روايات الخيال العلمي

بيرت أستاذة الأدب العربى فى الأكاديمية البحرية الأمريكية، تحمل خلفية فريدة تجمع بين الدراسات السامية والشعر، بين الأكاديمية الغربية والتراث العربى الشعبي. وهى صاحبة أطروحة دكتوراه مهمة عن «ظاهرة التوازى فى الشعر الجاهلي»، ومترجمة بارزة لشعراء عرب معاصرين كوديع سعادة وإيمان مرسال.

فى هذا الحوار، لا نحاور باحثة أجنبية تقف من الشعر العربى موقف الدارس البعيد، بل شاعرة أيضًا اختارت أن تكون جزءًا من نسيجه، أن تدرّسه، وتدافع عنه، وتعيد قراءته بلغتها ومفاهيمها ومشاعرها.

نفتح معها أبواب الأسئلة: عن اللغة والانتماء، عن التصنيفات العنصرية فى الجامعات الأمريكية، عن الشعر بوصفه مرآة إنسانية، وعن الترجمة كفعل وجودي. نقترب من رؤيتها الثقافية الشجاعة، ومن انحيازها الواضح لشعراء الهامش، وموقفها النقدى من المؤسسة، سواء فى الغرب أو فى الشرق.

●كيف بدأت علاقتك باللغة العربية؟

– دخلت إلى اللغة العربية عن طريق اللغات السامية المقارنة. ففى المرحلة الثانوية، درستُ عدة لغات مثل اللاتينية والألمانية، ومنها توجَّهتُ إلى الجامعة الكاثوليكية فى «واشنطن» بهدف التخصص فى التوراة والإنجيل، فدرستُ اللغة العبرية القديمة، واليونانية، والآرامية، والأكادية، والأمهرية، فأحببتُ اللغات السامية جميعها.

● كيف كانت تجربتك الأكاديمية آنذاك؟

– كان كل زملائى فى الكلية يدرسون دراسات عليا، وكنتُ أنا الوحيدة الطالبة فى الفَرقة الأولى بالجامعة؛ لذا كانوا يدرسون أربع مواد فقط، بينما كنتُ أدرس ست مواد، نتشارك فى الفصول الدراسية نفسها. وكان ذلك مرهقًا جدًا بالنسبة لي، فكنتُ أظل فى المكتبة حتى الثانية صباحًا، وأعود إليها مرة أخرى فى السادسة صباحًا لإنجاز دراسة اللغات السامية المقررة عليّ. كان ذلك عبئًا نفسيًا ضخمًا منعنى حتى من النوم، فلم أستطع إكمال الدراسة.

● وماذا فعلت بعد ذلك؟

– بعدها توجَّهتُ إلى ولاية «واشنطن» لأدرس فى كلية صغيرة هناك الشعر والرسم، وتصعلكتُ لمدة عام فى الغابات الأمريكية من أجل دراسة الشعر الأمريكى الحديث، خاصة الشاعرات. وبعد التخرج من هذه الجامعة، حاولتُ أن أكون فنانة تشكيلية لمدة عام أو عامين، لكننى لم أحقق النجاح المطلوب. وفى هذه الفترة، عاودتنى الرغبة فى استكمال دراساتى فى اللغات، فعدتُ إلى دراسة اللغات السامية مرة أخرى، وقررتُ أن أدرس العربية. طُلب منى أن أختار بين دراسة اللغة العربية الكلاسيكية أو المعاصرة، لكن كان لديَّ إصرار على دراسة النمطين معًا.

أخبرتُ باستحالة هذا الجمع، لأن هناك فصلًا صارمًا بينهما فى الجامعات الأمريكية، فرفضتُ هذا الفصل. ولم أستطع استكمال دراساتى لهذا السبب فى جامعة واشنطن بسياتل، فتقدمتُ بطلب للالتحاق بجامعة شيكاغو، وبدأتُ دراسة العربية مع اللغات السامية الأخرى. وكان سبب كل ذلك هو محبتى للشعر.

● هل تعرفين العبرية الحديثة؟

– لا أعرف العبرية المعاصرة، وإنما العبرية الخاصة بالتوراة. وقد اخترتُ جامعة شيكاغو، لأن برنامجها فى تدريس اللغات السامية كان الأفضل بين الجامعات الأمريكية. وربما كان هناك برنامج جيد جدًا فى جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس، لكننى اخترت شيكاغو لأن والدى كان طالبًا فيها.

● لماذا اخترتَ دراسة اللغة العربية تحديدًا من بين اللغات السامية؟

– وقع اختيارى على اللغة العربية من بين اللغات السامية الأخرى لأسباب عملية؛ فالجامعة منحتنى منحة تغطى جميع تكاليف الرحلة إلى القاهرة، فكيف أرفض ذلك؟ إذ لم تكن الجامعة، على سبيل المثال، تمنح منحًا كاملة لدراسة اللغة الأمهرية. حاولت أن أوازن بين الأمرين؛ فبعد أن كنت قد درستُ الشعر فى لغات أخرى، كالعبرية من التوراة، والشعر الأكادي، دخلتُ فى الشعر العربى الكلاسيكى فى العصر الجاهلي. ووجدتُ تشابهًا بين بنية الأشعار فى اللغات السامية عمومًا، فهى جميعًا مبنية على ظاهرة التوازي، وكانت تلك هى موضوع رسالتى للدكتوراه: "ظاهرة التوازى فى الشعر الجاهلي، مقارنةً بالشعر العبرى والأكادي".

● هل صحيح أن اللغة العربية أُخرجت من تصنيف اللغات السامية فى الجامعات الأمريكية؟

– نعم، فى كثير من البرامج التعليمية فى الجامعات الأمريكية، يتم فصل اللغة العربية عن اللغات السامية القديمة. وغالبًا ما تُدرَج العربية ضمن ما يُعرف بـ"اللغات الشرقية"، إلى جانب الفارسية والتركية وغيرهما. هذا التصنيف يعكس توجهًا أيديولوجيًا أكثر منه علميًا. فهم لا يكتفون بفصل العربية عن السامية، بل يذهبون إلى أبعد من ذلك، إذ يفصلون داخل اللغة الواحدة بين العربية الكلاسيكية والعربية المعاصرة. وهذا ما أرفضه بشدة، لأننى أرى أن هناك امتدادًا وتواصلًا بين المرحلتين. لا يمكن فهم الثقافة الحديثة دون الرجوع إلى جذورها الأدبية القديمة، وهذا مبدأ أتمسك به فى جميع دراساتي.

● ما سبب هذا الفصل برأيك؟

– أعتقد أن هذا الفصل مبنى على تصورات عنصرية مترسخة فى الذهن الغربي. فاللغات السامية تمت دراستها فى الغرب أساسًا بدوافع دينية، فى سياق محاولة إثبات الروايات الموجودة فى التوراة والإنجيل. الهدف الخفى كان تأكيد تفوق الغرب وشرعيته التاريخية والدينية. وإذا استمر تصنيف العربية كلغة سامية بجانب العبرية والآرامية والأكادية، فإن ذلك يعني، ضمنًا، الاعتراف باستمرارية ثقافية وتاريخية بين الديانات والأمم. وهم لا يريدون هذا الاعتراف، لأنه يتعارض مع الأيديولوجيا الغربية التى تضع المسيحية فى قمة الهرم، وتقصى ما عداها.

● لكن المتخصصين فى اللغات السامية يعرفون سامية العربية، أليس كذلك؟

– بالتأكيد، من يدرسون اللغات السامية المقارنة لا يساورهم شك فى أن اللغة العربية سامية، بل يعرفون ذلك تمام المعرفة. وأنا بدأتُ دراسة هذه اللغات فى "الجامعة الكاثوليكية" فى واشنطن، وهى جامعة دينية. درستُ على أيدى أساتذة كبار، كانوا قساوسة أو رهبانًا، ووجدت فيهم من أذكى العقول التى قابلتها فى حياتي. لم تكن لديهم تلك الأيديولوجيا الإقصائية، بل كانوا صادقين فى بحثهم.

● فهل ترين أن فصل العربية عن السامية يرتبط بالصراع السياسي؟

– نعم، أرى أن فصل اللغة العربية عن اللغات السامية جزء من مشروع أيديولوجي، يرتبط بشكل واضح بالصراع العربى الإسرائيلي، وبالرغبة فى إعادة تشكيل الوعى الأكاديمى والعام فى الغرب. فاللغة العربية هى الأحدث بين اللغات السامية، وهى الأقرب إلى العصور الوسطى، ولذلك تم وضعها إلى جانب التركية والفارسية، بينما أبعدت عن الدراسات الكلاسيكية الرومانية والإغريقية والفرعونية. هذا التصنيف فى جوهره ليس بريئًا، بل يعكس توجهًا يرغب فى إبقاء "الآخر" خارج المركز.

● ومتى بدأ اهتمامك الحقيقى بالمنطقة وباللغات القديمة؟

– كنتُ طفلة حين شاهدت حرب ١٩٦٧ على شاشة التلفاز، وقد ترك ذلك أثرًا كبيرًا فى وعيى المبكر. لاحقًا، شاركتُ فى مجال الحفريات فى سوريا وأنا فى التاسعة عشرة من عمري. كان أمامى خياران: إما أن أذهب إلى سوريا، أو إلى إسرائيل (فلسطين المحتلة)، لكن قيل لى إنه إذا أجريت دراسات فى إسرائيل، فلن أتمكن من العمل لاحقًا فى بلد عربي، والعكس صحيح. لم أكن أفهم تمامًا طبيعة هذا الصراع حينها. عملت صيفًا كاملًا فى موقع "تل الحديدي" الذى يبعد عن حلب نحو ١١٠ كيلومترات. أرسلت هناك من قبل أستاذى المتخصص فى العبرية والأكادية، الذى لم يكن له أى علاقة بالأمور الدينية، وإنما كان مهتمًا بفهم تاريخ المنطقة من منظور أكاديمى خالص.

●متى كانت أول زيارة لك لمصر؟

– بعد أربع سنوات، جاءتنى فرصة السفر إلى مصر عام ١٩٨٤م، فى منحة من الجامعة الأمريكية فى القاهرة، لدراسة الشعر الكلاسيكي، الذى تخصصتُ فيه تحت إشراف المستشرق الأمريكى الشهير ياروسلاف ستيتكيفيتش.

● تعرّفت على الوسط الثقافى المصرى بشكل مباشر فى هذه الزيارة؟

– صحيح فى تلك الفترة، تعرفتُ إلى شعراء مصر، وجلستُ معهم فى مقاهى القاهرة، من جيل السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات. وقد فتح الشاعر أحمد طه عينيّ على جوانب كثيرة من الوسط الأدبي، فى دوائره وتراثه وتاريخه ونصوصه ومعاركه. ولن أستطيع أبدًا أن أشكره على كل ما وفره لي، لأكوِّن مواقفى الخاصة مما لقيته فى عالم الأدب العربى هنا فى مصر.

●من ينظر إلى رحلتك الأكاديمية يجد أن الشعر ظل هو الثابت الوحيد الذى لا يتغير؟

– لأن الشعر، بالنسبة لي، من أقوى وسائل الإنسان فى التعبير عن إنسانيته. إذا كانت اللغة هى إحدى أهم الظواهر التى تميّز الإنسان ككائن، فإن الشعر هو، فى رأيي، أعظم ظاهرة لغوية. أنا أحب الشعر، وأراه أعمق من النثر فى التعبير عن المشاعر، بل عن كل شيء. الشعر يذهب إلى الجوهر، إلى ما لا يُقال بسهولة.

● كيف وجدت مكانة الشعر فى أمريكا مقارنة بالعالم العربي؟

– حين أتيت إلى العالم العربى عام ١٩٨٤، فوجئت بمكانة الشعر فيه. اكتشفت أن الشعر هنا يحظى باهتمام حقيقى من الجمهور، وأن له حضوره الحى فى الحياة الثقافية. وجدت شعراء فى مصر لديهم شهرة تضاهى شهرة نجوم مثل "أمريكان أيدول" أو مايكل جاكسون فى جيلي. هذا أدهشنى وأسعدني.

فى المقابل، لم أكن على تماس كبير بالثقافة الأمريكية، لأننى منذ البداية اتجهت لدراسة اللغات والثقافات القديمة، ولم أحتك كثيرًا بالإنتاج الثقافى الأمريكى المعاصر. لكننى كنت أعرف بعض الأسماء المهمة فى شعر المرأة، مثل آن سكستون (١٩٢٤–١٩٧٤) وأدريان ريتش (١٩٢٩–٢٠١٢)، وأعرف أن المثقفين فى أمريكا يقدّرون الشعر، ويرونه جزءًا مهمًا من الأدب الإنجليزى والأمريكي.

ومع ذلك، فإن مكانة الشعر فى الثقافة الأمريكية محدودة جدًا؛ ربما لا تتجاوز ٤٪ من المشهد الثقافى العام. بينما حين جئت إلى مصر، كان الشعر يشكل ما لا يقل عن ٥٠٪ من الثقافة العربية، إن لم يكن أكثر. هناك اهتمام عام بالشعر فى العالم العربي، وهو جزء من حياة الناس، وليس مجرد نشاط نخبة مثقفة.

●لماذا اتجهت إلى دراسة الشعر الجاهلى فى بداية اهتمَامك بالأدب العربي؟

– اتجهت إلى الشعر الجاهلى فى البداية، وأرى أن هذا أمر طبيعى تمامًا، لأننى أتيت من خلفية أكاديمية تركز على اللغات السامية القديمة، فكيف لى أن أقفز مباشرة إلى الشعر العربى الحديث؟ كنت قد أحببت الشعر السامى القديم ودرست الشعر العبرى فى التوراة، خصوصًا فى أسفارها الشعرية. كما درست على يد الأستاذ ياروسلاف ستيتكيفيتش (١٩٣٨–٢٠٢٠)، وكان متخصصًا فى الأدب الجاهلي، وإن كان أحيانًا يتناول عصورًا شعرية أخرى. وعندما بدأت فى دراسة الشعر العربي، لاحظت وجود ظاهرة "التوازي" فيه، وهى نفس الظاهرة التى وجدتها فى الشعر العبري، ومن هنا بدأت فكرة أطروحتي.

●ما أكثر ما لفت انتباهك فى الشعر العربى الجاهلي؟

– أكثر ما جذبنى هو عالمه السحري. أنا أحب كتب وأفلام الخيال العلمي، وكنت أرى الشعر الجاهلى كأنه "باب سحري" يفتح لك عالمًا متكاملًا، له قواعده ومنطقه الخاص، لكنه مختلف تمامًا عن عالمك المعاصر. الشعر الجاهلى غنى جدًا؛ فيه تفاصيل دقيقة عن الحياة البدوية ونمط العيش القديم، وهو أمر لا نجده بالعمق نفسه فى قصائد العصور اللاحقة. القصيدة الجاهلية تنبع من ثقافة بدوية أصيلة، وتملك قدرة مدهشة على بناء عالم متكامل فى ذهن القارئ.

● كيف يمكن للمرء ألا يُفتن بهذا العالم؟

ما الذى تعلمته من دراستك لبنية القصيدة العربية القَديمة؟

– تعلمت أن فهمى لجماليات الشعر بلغتى الأصلية مختلف تمامًا عن فهمى لجماليات الشعر العربى القديم. فالبنية الثلاثية التقليدية للقصيدة العربية – النسيب أو الوقوف على الأطلال، ثم وصف الطريق أو الرحلة، وصولًا إلى الغرض الأساسى من القصيدة – ليست مجرد قالب شكلي، بل هى مفتاح لفهم عبقرية الشاعر وتفرّده. الفعل الشعرى يتم داخل هذا الإطار، لا خارجه، ومن خلاله يُظهر الشاعر مهارته. هذه البنية لم تكن عائقًا أمام الإبداع، بل كانت من أهم أسباب استمرارية القصيدة وتواصلها الحى بين الأجيال.

حوار: د. عبدالكريم الحجراوي

«كما يموت الناس مات» إعادة تدوير للتراث

د. عبدالكريم الحجراوى

فى العام ٢٠١٣ وأنا جالس فى حضرة أستاذى الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي، جاءنا نعى أحد الشخصيات العامة، فقال وقتها الحجاجي: «كما يموت الناس مات». أعجبتنى الجملة كثيرًا، ورأيت فيها فيضًا من الشاعرية والبساطة فى آن، وقرأت مقطعًا من قصيدة أمل دنقل «مقتل القمر»

فكما يموت الناس.. مات!
وجلست
أسأله عن الأيدى التى غدرت به
لكنه لم يستمع لي
..... كان مات!

وقتها فاجأنى الحجاجى أن تلك الجملة ليست لأمل دنقل؛ وإنما اقتبسها من الشاعر عبدالمنعم عواد يوسف، فى قصيدة قالها فى رثاء صديق له

وكما يموت الناس مات
لا، لم تَنُح أرضٌ عليه ولا تهاوت شامخات
لا، لم تشيعه الطيور إلى القبور.. مولولات
وكما يموت الناس مات

شاعرية متدفقة تجرى بانسيابية فى نهر الشعر، لا تملك إلا أن تغرف غرفة بيديك؛ ليدب سحر الشعر فى كيانك، تلك الجملة التى سنكتشف الآن أنها ليست لأمل دنقل، ولا لعبدالمنعم عواد يوسف، وإنما جملة قالتها امرأة عربية فى العصر الجاهلي، لابنها الشاعر الذى سألها: كيف مات والده وجده؟ فقالت ببساطة: «كما يموت الناس ماتا» عبارة تقرّ حقيقة واقعية يعلمها كل الناس، لا تقدم جديًا من الناحية المعرفية، حتى صياغتها اللغوية أيضًا تتمتع بالبساطة نفسها، مما يدفعنا إلى السؤال: من أين إذًا تأتى كل هذه الطاقة الجمالية لهذه العبارة، التى تصلح أن تقال شعرًا أو فى غير الشعر؟ علمًا بأن المرأة آنفة الذكر، قالتها لأول مرة، لم تكن شاعرة، وقالتها فى سياق كلام عادي.

يذكر صاحب الأغانى أن الشاعر قيس بن الخطيم بن عدي، الشاعر الجاهلى اليثربي، قتل أبوه وجده، فخشيت أم قيس على ابنها أن يخرج فيطالب بثأر أبيه وجده فيهلك، فعمدت إلى كومة من تراب عند باب دارهم، فوضعت عليها أحجارًا، وجعلت تقول لقيس: «هذا قبر أبيك وجدك»، فكان قيس لا يشك فى ذلك الأمر، ونشأ قيس قويًا شديد الساعدين، فنازع يومًا فتى من فتيان بنى ظفر، فقال له ذلك الفتى: «والله لو جعلت شدة ساعديك على قاتل أبيك وجدك، لكان خيرًا لك من أن تخرجها علي».

فقال قيس: «ومن قاتل أبى وجدي؟»

قال الفتى: «سل أمك تخبرك».

فأخذ قيس السيف، ووضع قائمه على الأرض وذُبابه بين ثدييه، وقال لأمه: «أخبرينى من قتل أبى وجدي».

قالت أم قيس: «ماتا كما يموت الناس، وهذان قبراهما بالفناء».

فقال قيس: «والله لتخبرننى من قتلهما، أو لأتحاملن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري».

فقالت أم قيس: «أمّا جدك فقتله رجل من بنى عمرو بن عامر بن ربيعة يقال له مالك، وأما أبوك فقتله رجل من عبد القيس ممن يسكن هجر».

فقال قيس: «والله لا أنتهى حتى أقتل قاتل أبى وجدي».

فقالت أم قيس: «يا بنى إن مالكًا قاتل جدك من قوم خداش بن زهير، ولأبيك عند خداش نعمة هو لها شاكر، فأته فاستشره فى أمرك، واستعنه يعنك».

وبالفعل أعانه الرجل، واستطاع شاعرنا فى ملحمة درامية مؤثرة تصلح لأن تكون قصة لمسلسل، أن يثأر ممن قتل والده وجده.

والشاهد من هذه القصة: أن تلك مقولة «كما يموت الناس مات» قد أخذها الشاعر عبدالمنعم عواد يوسف، باعتباره الأسبق فى كتابة قصيدته عن قصيدة أمل دنقل، من التراث، واستطاع أن يوظفها شعريًا بشكل مميز جماليًا.